Journal of Alasmarya University
Volume 19, December 2013

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد التاسع عشر، ديسمبر 2013

مقصد تزكية النفس الإنسانية في الشريعة الإسلامية

د. محمد أحمد القياتي*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فهذا بحث بعنوان: (مَقْصَدُ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ) وقد دفعني إلى هذا البحث عدة أسباب:

أولها: أن الناظر في كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ يجدهما يدعوان بقوة إلى تزكية النَّفس، ورُغم هذا فإن ذلك الموضوع لم ينل العناية الكافية التي يستحقها في دراسته.

وثانيها: بيان تكاملية الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً؛ فالإسلام كلٌّ متكامل يسعى لمقاصد من أجلِّها مقصد طهارة النفس وتزكيتها؛ حتى تسعد في الدنيا والآخرة.

وثالثها: حثُّ الناس على تزكية نفوسهم لما لها من آثار جليلة وفوائد عظيمة على الفرد والمجتمع.

هذا، وقد جاء البحثُ -بعد هذه المقدمة- في تمهيدٍ وثلاثة مطالب وخاتمة: أماَّ التمهيد ففيه تعريف التزكية لغةً واصطلاحاً، ثم بيان أهميتها للفرد والمجتمع.

وأما المطلب الأول فهو بعنوان: تزكية النفس مقصد شرعي.

---

* الجامعة الأسمرية.

وأما المطلب الثاني فهو بعنوان: وسائل معنوية لتزكية النفس الإنسانية.
وأما المطلب الثالث فهو بعنوان: وسائل عملية لتزكية النفس الإنسانية.
وأما الخاتمة ففيها أهمُّ النتائج التي توصلت إليها من البحث وأهمُّ التوصيات.

واللهَ أسألُ أن يزكِّي نفوسنَا فهو خير مَنْ يزكيها، وأن يتقبل منا عملنا هذا وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

التمهيد: التزكية وأهميتها

التزكية لغةً

التزكية مصدر للفعل زكَّى، وزكَّى الشيء: أزكاه وأصلحه وطهَّرهُ، ونفسَه: مدحها[1].

والزكاة: التزكية، وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح، وكل ذلك استُعمل في القرآن الكريم والحديث[2].

وتزكية النفس ضربان:
فعلية: وهي محمودة ممدوحة شرعاً، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9] بأن يحملها على الاتصاف بكامل الأوصاف.
وقولية: وهي مذمومة، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: 32] أي بثنائكم عليها وافتخاركم بأفعالكم.

وأنشد ابن التلمساني:

دَعْ مدحَ نفسِك إنْ أردتَ زكاءَها ... فبمدحِ نفسِكَ عن مقامك تسقطَ
ما دمت تخفضها يزيد علاؤها ... والعكس، فانظر أي ذلك أحوط[3]

فالتزكية في اللغة إذن تدور حول معنيين: الطهارة والنماء.

1- المعجم الوسيط 1 / 396.
2- لسان العرب 358/4.
3- تاج العروس من جواهر القاموس 91/1.

التزكية اصطلاحاً

لا يكادُ يخرجُ المعنى الاصطلاحي للتزكية عن المعنى اللغوي لها، فالتزكية هي تطهير النفس، وإصلاحها، وتنمية الخير فيها، وفق منهج الإسلام.

جاء في (التعاريف) للمناوي: «التزكية إكساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم ... وأصل التزكية نفي ما يُستقبح قولاً أو فعلاً، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان»[4].

أهمية التزكية للفرد والمجتمع

أهميتها للفرد

يدلُّ على أهمية التزكية للفرد أن الله تعالى قد أقسم أحد عشر قسماً متوالياً على أن فلاح العبد منوط بتزكية نفسه، وأن خيبته منوطة بتدسيتها، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 1-10].

وقال تعالى أيضاً: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: 1-4].

«فصلاح العباد وفلاحهم ونجاتهم في تعهُّد أنفسهم بالإصلاح، وتطهير بواطنهم وظواهرهم من الشرك بالله تعالى، ومن سائر الصفات المذمومة، وتحليتها بالتوحيد، واستسلامها للشرع المجيد.

وقد أجمع علماء القلوب أن القلوب لا تصل إلى مناها حتى تكون صحيحة سليمة زكية، والله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً، فكلما طابت النفس وزكت قرَّبها الله عز وجل؛ فتسعد بالله، وتأنس به سبحانه، وكلما عصى العبدُ ربَّه وصغَّر نفسه وحقَّرها بمعصية الله طرده الله عز وجل من حضرته، وأبعده بقدر جنايته، فتحدث الوحشة بينه وبين ربِّه عز وجل، وبينه وبين عباد الله المؤمنين، فلو

4- التعاريف، للمناوي، ص 174.

حصلت له الدنيا بحذافيرها لم تعوضه هذه الوحشة.

وصفوة القول أن يُقال: كلما زكّى العبد نفسه بالتوحيد وطاعة العزيز الحميد سعد، والعكس بالعكس، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: 123-126].

تدبَّر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]، واعلم أن هذا الفلاح لأهل الزكاة في الدنيا والآخرة، والخيْبة لأهل التدسية في الدنيا والآخرة، كما أن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13-14] لا يعني أن نعيم الآخرة للأبرار، وجحيم الآخرة للفجار فحسب، بل الأبرار في نعيم الدنيا وفي دار البرزخ وفي الآخرة، وإن كان نعيم الدنيا دون نعيم الآخرة، كما أن العذاب في الدنيا دون عذاب الآخرة»[5].

أهميتها للمجتمع

عندما تزكو نفس الفرد فإن أفراد المجتمع يصيرون صالحين مصلحين، أصحاب همم عالية، وهذا ينعكس على المجتمع صلاحاً ورفعةً وتقدما؛ لأن كل فرد سيؤدي ما عليه قبل طلب ما له، فيتحقق للمجتمع السعادة والرخاء، ويخلو – أو يكاد– من الجرائم والفساد.

فالمجتمع كالبناء كلما قويت لبناتُه قوي بناؤه، وقوة لبنات المجتمع تكون بالإيمان ثم التزكية، «قل آمنتُ بالله ثم استقم»[6]، والاستقامة من أقوى وسائل التزكية.

5- التزكية بين أهل السُّنة والصوفية ص 8، 9.

6- أخرجه النسائي في سننه الكبرى 6 /458، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، بلفظ: «قل آمنت بالله فاستقم».

المطلب الأول: تزكية النَّفسِ مقصدٌ شرعيٌّ

آياتٌ كثيرةٌ وأحاديثُ غيرُ قليلةٍ تدل بوضوح على أن تزكية النفس الإنسانية من المقاصد الشرعية.

هذا، وفيما يأتي أذكر بعضاً من تلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدلُّ على ذلك:

1. يقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129] فالآية تصرح أن من مقاصد بعثة النبي ﷺ تزكية النفوس.

2. ويقول تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151] وهذه الآية أيضاً تصرح بأن التزكية من مقاصد الشريعة الإسلامية.

3. وقد امتن الله تعالى علينا بأنه جعل من مقاصد بعثة النبي ﷺ تزكية النفس فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: 2].

4. والتزكية فضل من الله ورحمة، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21].

5. وقد جعل الله التزكية أمارة الفلاح فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9].

وجعل ضد التزكية (التدسية) أمارة الخيبة فقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 10]. وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: 1-4].

والزكاة هنا هي التزكية؛ فأصل الزكاة اسم مصدر (زكَّى) المشدد، إذا

طهرت النفس من المذمات، ثم أُطلقت على إنفاق المال لوجه الله تعالى مجازاً؛ لأن القصد من ذلك المال تزكية النفس، أو لأن ذلك يزيد في مال المعطي[7].

6. وقد جعل الله تعالى الجنة جزاءَ مَنْ حقق مقصد التزكية فقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 75-76].

7. جعل الله تعالى عدم التزكية عقاباً لبعض الناس على جُرمهم فقال:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77].

8. وقد ذكر الله عدم التزكية في صفات المشركين فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: 6-7].

هذا، ومن الأحاديث النبوية الشريفة:

1. يقول النبي ﷺ في دعائه: «اللهم آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها»[8].

ويقول النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتصلح بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدي وترد بها أُلفتي ...»[9].

7- التحرير والتنوير، لابن عاشور، 12/18.

8- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

9- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث =

فالنبي ﷺ يسأل ربه عز وجل تزكية نفسه وعمله، وهذا يدل على قيمة التزكية وأهميتها، وعلى أن من أهم وسائل تحقيقها الدعاء؛ فالله سبحانه بيده تزكية النفوس وتطهيرها.

2. وذكر النبي ﷺ في أحاديث عدة أن عدم التزكية عقاب على بعض الآثام:

أ. قال ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجل بايع رجلاً لا يبايعه إلا لدنياه إن أعطاه ما يريد وفى له وإلاَّ لم يفِ له، ورجل ساوم رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف بالله لقد أُعطي بها كذا وكذا فأخذها »[10].

ب. قال ﷺ: « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب »[11].

ج. قال ﷺ: « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ وملك كاذب وعائل مستكبر »[12].

تلك بعض الآيات وبعض الأحاديث التي تدل بوضوح على أن تزكية النفوس مقصد شرعي.

يقول العلامة ابن عاشور: « إن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة[13] بأسرها فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان ونبذ العبادة الضالة وإتباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم، وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طريق النجاح، وتزكية نفوسهم »[14].

=

ابن أبي ليلى من هذا الوجه.

10- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشهادات، باب اليمين بعد العصر، ومسلم بنحوه في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية.

11- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية.

12- أخرجه مسلم في صحيحه، في الموضع السابق.

13- يَقْصد البشرية كلها.

14- التحرير والتنوير 81/1.

ويقول الشيخ السيد سابق: الغاية التي ترمي إليها رسالة الإسلام تزكيةُ الأنفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله وعبادته، وتدعيمُ الروابط الإنسانية وإقامتها على أساس من الحب والرحمة والإخاء والمساواة والعدل، وبذلك يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107][15].

ويقول الدكتور محمد الزحيلي: التزكية هي المقصد الأسمى الذي يريده الله لعباده في هذه الدنيا، وهي منتهى ما بعث الله لأجله رسله وخلاصة ما ضمَّنه شرائعه[16].

علاقة مقصد تزكية النفس الإنسانية بالمقاصد الضرورية

مقصد تزكية النفس الإنسانية وثيق العلاقة بالمقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ العقل، وحفظ المال.

فإن النفس إذا زكت حُفظ الدين بإقبال الإنسان على أوامره وبعده عن نواهيه.

وكذلك يتحقق حفظ النفس، فتسلم -ممن زكتْ نفسُه- نفوس الناس فلا تُنال بأذى، وتسلم أيضاً أعراضهم وأموالهم.

والعقل بتزكية النفس تتفرغ طاقاتُه للعطاء النافع، فلا حيِّز لديه للتفكير في الشرِّ أو الفساد.

المطلب الثاني: وسائل معنوية لتزكية النفس الإنسانية

شرع الله تعالى عدة وسائل معنوية لتزكية النفس، نذكر ههنا أهمها:

15- فقه السُّنة 11/1.

16- كتاب الأمة، العدد 87، محرم 1423 هـ السنة 22، ص37.

الفرع الأول: التزكية بالتوحيد

يقول الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: 6-7] فالتوحيد يزكي النفوس ويطهرها من أدران الشرك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله[17].

ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 128] فالنجاسة هنا ليست نجاسة عينية بل هي معنوية، قلوبهم نجسة؛ لأنها لا تعرف الله تعالى معرفة صحيحة، ولا تعبده وحده لا شريك له عبادة صحيحة[18].

يقول العلامة ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]: «وقد ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله؛ لأن النفس المعرَّضة للتزكية والكمال يجب أن يُقَدَّم لها قبل ذلك تخليها عن مبادئ الفساد والضلال؛ فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل»[19].

الفرع الثاني: التزكية بالإخلاص

الإخلاص أعز شيء في الدنيا -كما قال بعض العلماء- ولهذا يحتاج إلى مجاهدة قبل العمل بتجريد النية لله تعالى وحده، ثم بمجاهدة النفس والشيطان حفاظاً على الإخلاص أثناء العمل، ثم باتهام النفس بالتقصير بعد العمل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60].

والإخلاص يزكي النفس من أدران الرياء والشرك؛ ومن ثَمَّ فقد حثَّ الله تعالى عليه بل أوجبه، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

17- الدر المنثور في التفسير بالمأثور 313/7.
18- التزكية بين أهل السنة والصوفية ص 11.
19- التحرير والتنوير 21 / 155.

وقال النبي ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »[20] فقد جعل النبي ﷺ إخلاص النية سبباً لصحة العمل والثواب عليه.

ومن أجل ذلك فالقلب الذي هو محل النية هو محط نظر الله تعالى، يقول النبي ﷺ: « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم »[21].

الفرع الثالث: التزكية بالتوبة[22]

التوبة هي الرجوع من معصية الله إلى طاعته، وهي واجبة من كل ذنب، ويُشترط فيها الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، ورد الحقوق إلى أصحابها[23].

وعلاقة التوبة بالتزكية واضحة؛ لأنها تطهِّر النفس من دنس المعصية، وتنمِّي فيها مراقبة الله تعالى؛ فتتهيأ للتحلية بعد التخلية.

وقد وردت آيات كريمة وأحاديث شريفة في الحث على التوبة منها:

1. قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 31].
2. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8].
3. قال رسول الله ﷺ: « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[24].
4. وقال ﷺ: « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة »[25].

20- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

21- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله.

22- التوبة فيها جانبان: معنوي وعملي، وقد رجحتُ وضعها في الوسائل المعنوية؛ لأن ركنها الأساس معنوي وهو الندم.

23- انظر: رياض الصالحين، للنووي، ص 11. هذا، وقد اعتمدتُ في جمع الآيات والأحاديث في كثير من وسائل التزكية على هذا الكتاب المبارك (رياض الصالحين)، رحم الله النووي رحمةً واسعة.

24- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

25- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

5. وقال ﷺ: « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[26].

الفرع الرابع: التزكية بالصبر

الصبر أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء.

والإنسان حين يعوِّد نفسه الصبر عن المعصية، والصبر على الطاعة، تزكو نفسه وترقى في مدارك الكمال.

ولهذا حثنا الله ورسوله ﷺ على الصبر:

1. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 200].
2. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر: 10].
3. وقال ﷺ: « ما يكن عندي من خير لا أدخره عنكم وإنه من يستعفَّ يعفَّه الله ومن يتصبر يصبره الله ومن يستغنِ يُغنه الله ولن تُعطوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر »[27].
4. وقال رسول الله ﷺ: « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[28].
5. وقال ﷺ: « من كظم غيظاً وهو قادر على أن يُنفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء »[29].

الفرع الخامس: التزكية بالصدق

من وسائل تزكية النفس الصدق، والصدق يكون في الأقوال والأعمال

26- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

27- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله.

28- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.

29- أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الزهد، باب الحلم. وقال الألباني: حسن.

والأحوال.

فلا يكفي أن يصدق الإنسان في قوله بل لابد أن يصحب ذلك صدق في فعله بأن يوافق عملُه قولَه، ولا بد أيضاً أن يصدق في أحوال قلبه مع الله تعالى، ولهذا كله أكبر الأثر في زكاة النفس:

1. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: 119].
2. وقال تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: 21].
3. وقال النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّاباً»[30]. فالصدق يزكي النفس بالخير ويطهرها من الشر، وهو من أخصِّ صفات المؤمن، سُئل النبي ﷺ: «أيكون المؤمن كذَّاباً؟ فقال: لا»[31].

الفرع السادس: التزكية بالمراقبة

المراقبة هي أن يجعل الإنسان الله رقيباً عليه في كل أقواله وتصرفاته، وأن يعلم يقيناً أن الله تعالى يراه، إن لم يكن هو يرى الله !

وهذه المراقبة أكبر عون للإنسان على تزكية نفسه؛ لأنها تحمله على طاعة الله والبعد عن معصيته:

1. يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 218-219].
2. ويقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: 4].

30- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

31- أخرجه مالك في الموطأ: كتاب الكلام، باب ما جاء في الصدق والكذب. قال ابن عبد البر «مرسل مقطوع ... ولا أحفظ هذا الحديث مسنداً بهذا اللفظ من وجه ثابت، وهو حديث حسن، ومعناه أن المؤمن لا يكون كذَّاباً، يريد أنه لا يغلب عليه الكذب حتى لا يكاد يُصدَّق، هذا ليس من أخلاق المؤمنين». التمهيد لابن عبد البر، 253/16.

3. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: 5].
4. وقال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: 19].
5. وجاء في الحديث: « ... فأخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... »[32].
6. وقال ﷺ: « اتقِ الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »[33].
7. وقال ﷺ: « احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ... »[34].
8. وعن أنس ﷺ قال: « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات »[35].
9. وقال ﷺ: « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله »[36].
10. وقال ﷺ: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[37].

الفرع السابع: التزكية بالتقوى

التقوى هي أن يجعل المرء بينه وبين ربه وقاية هي طاعته والبعد عن معصيته.

ولا شك أن التقوى تزكِّي النفس بمعنييها: الطهارة والزيادة، الطهارة من

32- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى.
33- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
34- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب صفة القيامة، باب قول النبي ﷺ: يا حنظلة ساعة وساعة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
35- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب ما يُتقى من محقرات الذنوب.
36- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب صفة القيامة، باب الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، وقال: هذا حديث حسن.
37- أخرجه مالك في الموطأ: كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، وابن ماجه في سننه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة. وقال الألباني: صحيح.

دنس المعاصي، والزيادة في القرب من الله بطاعته.

وهذه بعض الآيات والأحاديث:

1. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: 102].
2. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: 70].
3. وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].
4. وقال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[38].
5. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم»[39].

الفرع الثامن: التزكية بالمجاهدة

المجاهدة هي أن يجاهد الإنسان نفسه الأمَّارة بالسوء، والشيطان، اللذين يأمرانه بمعصية الله تعالى التي تدسي نفسه وتدنسها، وينتج عن هذه المجاهدة زكاة النفس وطهارتها:

1. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].
2. وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].
3. وكان النبي ﷺ -كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها-: يقوم الليل حتى تتفطر قدماه. فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»[40].
4. وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا

38- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء.

39- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب أبواب السفر، باب ما ذُكر في فضل الصلاة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

40- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، سورة الفتح.

الليل وأيقظ أهله وجدَّ وشد المئزر»[41].

5. عن أبي عبد الله حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة فقلت: يركع عند المائة ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى فقلت، يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآيةٍ فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريباً من قيامه»[42].
6. وقال ﷺ: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله»[43].
7. وقال ﷺ لمن سأله مرافقته في الجنة: «أَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود»[44].

الفرع التاسع: التزكية بعُلْو الهمَّة

الإسلام دين يُحِب علو الهمة ويحث عليه، وهو بدوره يزكي النفس ويطهرها من التدسية وآثارها.

يقول تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 175-176].

جاء في تفسير الآيتين: وأخبرهم يا رسول الله خبر ذلك الذي آتيناه علماً

41- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان.

42- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.

43- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب من طال عمره وحسن عمله، وقال هذا حديث حسن صحيح.

44- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه.

من علم الأنبياء الذي أنزله الله في كتبه وهو من علماء بني إسرائيل فترك العمل بآيات الله وأهملها وتبرأ منها فاستولى عليه الشيطان وصار قرينه يتبع أوامره ويقتدي به وصار من رؤوس أهل الضلالة، ولو شاء الله له الرفعة والمكانة العالية والدرجة السامية لأكرمه وجعله عاملاً بعلمه متّبعاً لآيات ربه مهتدياً بهداه، ولكنه اتبع هوى نفسه الأمارة بالسوء وآثر الدنيا على الآخرة وركن إليها، وآثر المتاع الزائل الرخيص على النعيم الباقي الدائم في جنات النعيم، وهذا الرجل يركض وراء الدنيا كركض الكلب وراء ما يريده[45]. فآيات الله تعالى تُعلي الهمة، وعلوها يزكي النفس ويرتقي بها.

ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها»[46].

وعلو الهمة هو الذي زكّى نفوس الصحابة والتابعين وسلف الأمة الصالحين، فقادوا الأمم فكانوا فرساناً بالنهار رهباناً بالليل.

الفرع العاشر: التزكية بتذكر الموت والدار الآخرة

لا شك أن الإنسان يُقبل على المعاصي ويبعد عن طاعة الله تعالى حين ينسى الموت والدار الآخرة وأهوالهما؛ لهذا حث الشرع على ذكر الموت حتى تصلح النفس.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

وقال ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللذات»[47]. وعنه ﷺ: «نهيتكم عن زيارة

45- انظر: التفسير الميَّسر، ص221.

46- أخرجه الطبراني في الأوسط 210/3، وفي الكبير 131/3 بلفظ: «يحب معالي الأمور وأشرافها»، قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 344/8. رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه إلا أنه قال: «يحب معالي الأخلاق» ورجال الكبير ثقات.

47- أخرجه أحمد في المسند 301/13، وابن ماجه في سننه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد. وقال الألباني: حسن صحيح.

القبور فزوروها »[48] وفي رواية: « فإنها تذكركم الآخرة »[49].

وقال تعالى عن النار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: 56].

وقال ﷺ عن الجنة: « قال الله تعالى: « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[50].

وذِكْرُ الجنة والنَّار كثيرٌ في القرآن والسُّنة، وتَذكُّرُهما له دورٌ عظيم في تزكية النفس؛ لأن مَنْ يخاف النار يبتعد عن المعاصي والآثام، ومَنْ يرغب في الجنة يُقبل على طاعة رب الأنام.

المطلب الثالث: وسائل عملية لتزكية النفس الإنسانية

ذكرتُ في المطلب السابق بعض الوسائل المعنوية لتزكية النفس الإنسانية، وفي هذا المطلب أذكر بعض الوسائل العملية لتحقيق تلك التزكية:

الفرع الأول: تزكية النفس بالصلاة

الصلاة هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وقد بيَّن الله تعالى أن لها دوراً كبيراً في تزكية النفس، وذلك حين تقام بأركانها وخشوعها، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: 14-15] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [فاطر: 18]، فالصلاة -كما يتضح من الآيات- سبيل من سبل تزكية النفس؛ فقد ربطت الآيات بين التزكية و الصلاة.

ويقول النبي ﷺ: « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يوم

48- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربّه عز وجل في زيارة قبر أمه.

49- أخرجه أحمد في المسند 398/2.

50- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

خمس مرات هل يبقى من درنه شيء، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا »[51].

الفرع الثاني: تزكية النفس بإيتاء الزكاة

الزكاة اسم لما يخرجه المسلم من حق الله تعالى إلى الفقراء، وسُميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات؛ فإنها مأخوذة من الزكاة وهي النماء والطهارة والبركة، قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103].

أي خُذْ أيها الرسول من أموال المؤمنين صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع، تطهرهم وتزكيهم بها، أي تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين، وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها، أي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخُلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية و الأخروية[52].

وجاء في تفسير (المنار): « إن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء صدقة لمواساة الفقراء ومن في معناهم، وإقامة المصالح العامة، وأن الفائدة في ذلك للأغنياء تطهير أنفسهم من رذيلة البخل، وتزكيتها بفضائل الرحمة بالفقراء وسائر أصناف المستحقين، ومساعدة الدولة والأمة في إقامة المصالح العامة، والفائدة للفُقراء وغيرهم إعانتهم على نوائب الدهر، مع ما في ذلك من سد ذريعة المفاسد في تضخم الأموال وحصرها في أناس معدودين[53]، وهو المشار إليه بقوله تعالى في حكمة قسمة الفيء ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ [الحشر: 7]»[54].

51- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الأمثال، باب مثل الصلوات، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

52- فقه السُنة 398/1.

53- وهذا ما يُسمى برواج المال، وهو مقصد من مقاصد شريعة الإسلام. انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، ص464.

54- تفسير المنار 439/10.

ويقول ابن عاشور رحمه الله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية[55].

الفرع الثالث: تزكية النفس بالصيام

للصوم أثر كبير في تزكية النفس، وقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183].

فالصوم يورث القلب التقوى والمراقبة فيجعله يزكو ويطهُر من الدنس، كما أنه يشعره بالفقراء والمساكين فيعطف عليهم ويقدم بعض الخير الذي عنده لهم فتزكو نفسه من الشح.

يقول الشيخ السيد سابق: «الصيام عبادة من أفضل القُربات، شرعه الله تعالى ليهذِّب النفس، ويعوِّدها الخير، فينبغي أن يتحفظ الصائم من الأعمال التي تخدش صومه، حتى ينتفع بالصيام، وتحصل له التقوى»[56].

وفي الصيام ما يُلْجم الشهوة ويضبط ثورتها كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[57].

والصيام يطهّر اللسانَ من فحش القول وبذيء الكلام، والسلوكَ من سوء الفعال، يقول ﷺ: «قال الله: كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي والصيام جُنَّة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل إني صائم ...»[58].

55- التحرير والتنوير 23/11.

56- فقه السنة 1 / 525.

57- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباءة فليتزوج.

58- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شُتم.

وليس المقصود الصيام هو مجرد الجوع والعطش، وإنما الجوع وسيلة لتزكية النفس وتطهيرها فإن لم يتحقق ذلك المقصود فلا حاجة لأَنْ يدع المسلم طعامه و شرابه، يقول النبي ﷺ: « من لم يدع قول الزور و العمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه »[59].

الفرع الرابع: تزكية النفس بالحج

الحج ركن من أركان الإسلام وهو عبادة بدنية مالية، وللحج أثر عظيم في تزكية النفس ولا أدل على ذلك من أن الحاج يعود من تلك الرحلة -وهو مِنْ طهره وزكاة نفسه- كيومَ ولدته أمه. يقول النبي ﷺ: « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيومَ ولدته أمه »[60].

هذا، ومن منافع الحج أن كل مشهد من مشاهده يحمل ذكرى عظيمة تدفع المسلم إلى الصبر والتضحية والإصرار على تحقيق الأهداف العالية وتقوِّي فيه الرغبة في حمل رسالة الحق ونصرة دين الله تعالى[61].

الفرع الخامس: تزكية النفس بطلب العلم

العلم من أعظم وسائل التزكية؛ ولهذا جاءت التزكية مقترنة به في كتاب الله تعالى في أكثر من آية:

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ [البقرة: 129]. وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [البقرة: 151].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ

59- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور و العمل به في الصوم.

60- أخرجه -بلفظه- البخاري في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، وأخرجه بنحوه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة و يوم عرفة.

61- العبادات أحكام وأدلة، د. الصادق الغرياني، 342/2.

ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: 164].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: 2].

فبقدر ما يحصِّل الإنسان من علم ويعمل به تحدث في نفسه خشيةُ الله تعالى، وإقبالٌ على طاعته، وبعدٌ عن معصيته؛ فتزكو نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28].

الفرعُ السادس: التزكية بذكر الله تعالى

ذِكْرُ الله تعالى من أكبر وسائل تحقيق التزكية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 45].

جاء في (تفسير القرطبي): قيل: المعنى إن ذِكْر الله أكبر -مع المداومة عليه- من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر ... وقيل: ذكر الله يمنع من المعصية؛ فإنْ من كان ذاكراً له لا يخالفه[62].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45]. فالذكر طريق الفلاح؛ ولهذا شرع لنا نبيُّنا ﷺ أذكاراً لكل حركة وسَكنة في حياتنا، فجدير بنا أن نَلْزَمَهَا ونخشع عند قولها قلباً وقالباً؛ كي تزكو نفوسنا وترقى.

ومما يبيِّن أهمية الذكر وفضله قول النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى»[63].

يقول الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الساحلي

62- تفسير القرطبي 349/13.

63- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات، باب منه (أي من فضل الذكر). وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك 673/1.

المالقي في كتابه الذي ألفه في السلوك: واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه وتزكيتها، وطرق التزكية وإن كثُرَتْ فطريق الذكر أسرع نفعاً وأقرب مراماً، وعليه درج أكثر مشائخ التربية[64].

هذا، وقراءة القرآن الكريم أفضل الذِّكر؛ فإنها تترك في النفس أثراً كبيراً؛ فالقرآن يصنع من يقرَؤه بتدبُّر وخشوع، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: 175-176]، فآيات الله تعالى ترفع وترقِّي وتزكِّي.

إن تلاوة القرآن الكريم حق تلاوته تدعو النفس إلى الاستقامة قولاً وعملاً وتحثُّ على التزكية، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: 16].

والقلب حين يطهر لا يشبع من كلام ربه كما بين سيدنا عثمان ﷺ في قوله: «لو طَهُرَت قلوبكم ما شبعت من كلام الله عز وجل»[65].

ومما يرتبط بالذِّكر الدعاءُ، وهو من أجلِّ الوسائل العملية لتحقيق التزكية؛ ولهذا دعا النبي ﷺ ربَّه أن يزكي نفسه فقال: «وزكِّها أنت خير من زكَّاها»[66].

الفرع السابع: التزكية بالاستقامة

الاستقامة هي ملازمة الطاعة، وقد كانت خُلقَ النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ خلقه القرآن[67].

64- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي، 81/2.
65- فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، 479/1.
66- سبق تخريجه.
67- أخرجه أحمد في المسند 148/41.

وكذلك كان الصحابة ﷺ والتابعون ومن تبعهم بإحسان؛ فقد

روي عن بعض سلف الأمة الصالح أنه كان لا يُرى إلا على طاعة؛ حتى قالوا عنه: إنه لا يُحسن فعل المعصية!

ولا شك أن الاستقامة أفضل وسائل تزكية النفس:

1. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].
2. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 13-14].
3. وقال ﷺ -لمن قال له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك- قال: «قل آمنتُ بالله ثم استقم»[68].

فالنبي ﷺ لخَّص الدين في التوحيد والاستقامة على أمر الله تعالى، وبهما تتحقق تزكية الإنسان قلباً وقالباً.

الفرع الثامن: تزكية النَّفس بتحسين الخُلُق

الأخلاق لها ارتباط وثيق بالعقيدة يدل على ذلك قول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم خُلقاً»[69].

وقوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من خصال النفاق: إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[70].

الحديث الأول يربط بين كمال الإيمان وكمال الخُلق، والحديث الثاني يبين أن مظاهر الفساد الخلقي نتاج ضعف الإيمان.

68- سبق تخريجه.

69- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

70- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.

هذا، وحسن الخلق له كبير أثر في تزكية النفس والجوارح وخاصة اللسان: عن أنس ﷺ قال: « خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعتُه لم صنعتَه؟ ولا لشيء تركتُه لم تركتَه »[71].

فحسن الخلق يزكي النفس ويحسِّن السلوك، وأفضل نموذج لذلك هو سيدنا رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

ومن كان في خلقه اعوجاج فعليه أن يُجاهد لتقويمه؛ فإنه سيستقيم بالمجاهدة؛ يقول النبي ﷺ: « من يستعفف يعفَّه الله ومن يستغنِ يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله »[72].

الفرع التاسع: التزكية بالزهد

إن من أكبر أسباب عدم تزكية النفس التعلق بالدنيا وملاذها؛ ولهذا حث الإسلام على الزهد فيها تحقيقاً للتزكية:

1. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: 24].
2. وقال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: 45-46].
3. وقل تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: 20].
4. وقال ﷺ: « إنَّ مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا

71- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

72- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة.

وزينتها »[73].

5. وقال ﷺ: « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء »[74].
6. وقال ﷺ: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[75].
7. وقال ﷺ: « ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك »[76].
8. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « إنْ كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا الماء والتمر »[77].
9. وخرج ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير[78].
10. ولم يأكل ﷺ على خوان[79] حتى مات وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات[80].
11. وقال ﷺ: « اللهم ارزق آل محمدٍ قوتاً »[81].
12. وقال ﷺ: « قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً وقنعه الله »[82].

73- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى.

74- سبق تخريجه.

75- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل.

76- أخرجه ابن ماجة في سننه: كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا. وقال النووي: رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة. الأربعون النووية ص77.

77- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب صفة القيامة، باب كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، وقال: هذا حديث صحيح.

78- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأطعمة، باب ما (أي الذي) كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون.

79- ما يؤكل عليه الطعام، والأكل عليه دليل التمكن من الأكل والامتلاء من الطعام. انظر: المصباح المنير 184/1.

80- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب فضل الفقر.

81- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

82- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الفرع العاشر: التزكية بغض البصر

إن إطلاق النظر إلى المحرمات يؤدي إلى تدسية النفس، وبغضِّه تحدث تزكيتها.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 30-31].

أي قل أيها النبي للمؤمنين يغضوا من أبصارهم عما يحرم عليهم من النساء والعورات، ويحفظوا فروجهم عن الوقوع في المحرمات من سائر الفواحش، وكشف العورة للأجنبي؛ لأن في هذا طهارة لنفوسهم وحفظاً لأعراضهم، إن الله خبير بكل ما يصنعه العبد فعليه أن يراقب ربه ويخاف مولاه[83].

وقال ﷺ « إياكم والجلوس بالطرقات فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بُد نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[84].

وسأل جرير ﷺ رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: « اصرف بصرك »[85].

وختاماً يقول الشاعر عمّن لا يغضُّ بصره:

كل الحوادث مبدأها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم من نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والعبد ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر[86]

83- التفسير الميسر، للشيخ عائض القرني، ص 410.
84- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاستئذان، الباب الثاني.
85- أخرجه أبو داود في سننه: كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر. وقال الألباني: صحيح.
86- انظر: الكبائر، للذهبي، ص 59، وصيد الخاطر، لابن الجوزي، ص 342.

الفرع الحادي عشر: التزكية بترك الغيبة والنميمة وسائر آفات اللسان

إن حفظ اللسان من آفات الكلام فيه تزكية للنفس، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: 1-4]. ويقول تعالى حثاً على حفظ اللسان: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

وقال ﷺ: « ... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[87].

قال النووي: اعلم أنه ينبغي لكل مكلَّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسُّنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يَعْدِلُها شيء[88].

وقال النبي ﷺ: « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي »[89].

الفرع الثاني عشر: التزكية بترك الربا

الربا يملأ النفوس بالجشع والطمع واستغلال حاجات الناس، ولهذا حرمه الله تعالى فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: 275]، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: 279].

وعن ابن مسعود ﷺ قال النبي ﷺ « لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومُوْكِلَه

87- أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه.

88- الأذكار، للنووي، ص 365.

89- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه بنحوه مالك في الموطأ: كتاب الكلام، باب ما يُكره من الكلام بغير ذكر الله.

وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء»[90].

وبناءً على ذلك فترك الربا، وإقراضُ الناس قرضاً حسناً، أو إعطاؤهم المال مضاربة، فيه تزكية للنفس من أدران الربا المعنوية، وما يتبع ذلك من مفاسد مادية.

الخاتمة

في ختام بحثي هذا أذكر أهمَّ نتائجه وأهمَّ توصياته:

1. التزكية هي تطهير النفسِ وإصلاحها وتنميتها وفق منهج الإسلام.
2. التزكية تُحقق للإنسان القُرب من الله تعالى والسعادة في الدنيا والآخرة.
3. تزكية نفوس الناس تنعكس على المجتمع صلاحاً ورفعة وتقدماً.
4. تزكية النفس مقصد شرعي عام ثبت بالكتاب والسُّنة.
5. مقصد تزكية النفس الإنسانية وثيق العلاقة بمقاصد الشريعة الضرورية.
6. ينبغي تفعيل هذا المقصد في الفقه المعاصر: اختياراً من أقوال الفقهاء في المسائل القديمة، وإنشاءً في المسائل المستجدة.
7. للتزكية وسائل معنوية منها:
   أ. التوحيد
   ب. الإخلاص
   ج. التوبة
   د. الصبر
   ه. الصدق
   و. المراقبة
   ز. التقوى
   ح. المجاهدة
   ط. علو الهمة
   ي. تذكر الموت والدار الآخرة
8. للتزكية وسائل عملية منها:

90- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله.

أ. الصلاة
ب. الزكاة
ج. الصيام
د. الحج
ه. طلب العلم
و. ذكر الله تعالى ودعاؤه
ز. الاستقامة
ح. تحسين الخلق
ط. الزهد
ي. غض البصر
ك. ترك آفات اللسان
ل. ترك الربا

9. عند التحقيق نجد كلَّ ما في الشريعة الإسلامية من أوامرَ أو نواهٍ يَقصِدُ إلى تزكية النفس، فما ذكرناه من وسائلَ هي بعضُ الوسائل وليست كلَّها.

10. على الدول الإسلامية مراعاة التزكية وتفعيلها في مناهجها التربوية والتعليمية والإعلامية بأن يكون المحتوى فيها ساعياً للتزكية، لا للتدسية كما هو الحال الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

11. أوصي أن يقوم بعض باحثي الماجستير والدكتوراه بدراسة موضوع التزكية في القرآن الكريم والسُّنة المطهرة؛ فهو موضوع جدير بالدراسة الموسَّعة.

المصادر والمراجع

1. الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار، للإمام العلامة أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المكتبة التوفيقية، تحقيق عماد زكي البارودي.
2. الأربعون النووية، للنووي، مع تتمتها للحافظ ابن رجب، تحقيق علي بن أحمد بن حسن الرَّازحي، دار الآثار للنشر والتوزيع، صنعاء، اليمن، ط. 2، 1427 هـ - 2006 م.
3. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزَّاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي، ط. دار الهداية تحقيق مجموعة من المحققين.
4. التحرير والتنوير، الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
5. التزكية بين أهل السُّنة والصوفية، للشيخ أحمد فريد، بحث على المكتبة الشاملة.
6. التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ط. 1، 1410هـ تحقيق د. محمد رضوان الداية.
7. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
8. التفسير الميسر، للدكتور عائض القرني، مكتبة العبيكان، الرياض، ط4، 1431هـ 2010م.
9. التمهيد، لابن عبد البر، طبعة وزارة عموم الأوقاف، المغرب، 1387هـ تحقيق مصطفى أحمد العلوي.
10. الجامع الصحيح (سنن الترمذي) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين.
11. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار عالم الكتب،

الرياض، السعودية، ط. 1423 هـ - 2003م.
12. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
13. حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة، د. محمد الزحيلي، ضمن كتاب الأمة، العدد 87، محرم 1423هـ السنة 22.
14. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، 1993م.
15. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للنووي، دار الفجر للتراث، ط. 2، 1431هـ - 2010.
16. سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
17. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
18. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت ط. 1، 1411هـ 1991م، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن.
19. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة بيروت، ط. 3، 1407هـ 1987م تحقيق د. مصطفى ديب البغا.
20. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري، النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
21. صيد الخاطر، للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، البغدادي، تحقيق الدكتور السيد محمد السيد، والأستاذ سيد إبراهيم صادق، ط. دار الحديث القاهرة، 1426هـ 2005م.
22. العبادات أحكام وأدلة، د. الصادق عبد الرحمن الغرياني، ط. 11، 2007م، دار ومكتبة الشعب للنشر والتوزيع، مصراتة ليبيا، ومكتبة الطالب الجامعي، طرابلس ليبيا.

23. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط. 1، 1403هـ 1983م تحقيق د. وصي الله محمد عباس.
24. فقه السنة، الشيخ السيد سابق، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ط. 3، 1411-1412هـ.
25. الكبائر، للذهبي، دار الندوة الجديدة، بيروت.
26. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط. 1.
27. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر بيروت 1412هـ.
28. المستدرك، للحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ - 1990، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.
29. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط. 2، 1420هـ 1999م.
30. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
31. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ تحقيق طارق بن عوض الله، وعبد المحسن الحسيني.
32. المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط. 2، 1404هـ 1983م، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي.
33. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
34. مقاصد الشريعة الإسلامية، العلامة محمد الطاهر بن عاشور، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 2، 1421هـ 2001م، تحقيق محمد الطاهر الميساوي.
35. الموطأ، للإمام مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، برواية يحيى الليثي، دار إحياء التراث العربي، مصر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
36. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية بيروت، 1399هـ 1979م، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي.